مجلـة الآداب للعلوم الإنسـانية
المجلد السابع العدد الأول، يونيو 2024،
ص ص: 129- 170
Arts & Humanities Journal
Vol. 7, Issue no.1, Jun. 2024,
pp.129-170

Issn (النسخة الالكترونية): 3006 -757X Issn (النسخة المطبوعة): 3006 -7561

أثر السياق القرآني في حماية العقل الإنساني وتصحيح المفاهيم الخاطئة

الدكتور محمد فيصل باحميش

أستاذ مساعد بقسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية– جامعة عدن

dr.mohd.bahamish@gmail.com

تاريخ استلام البحث: 8/ 6/ 2024 **تاريخ قبوله للنشر:** 22/ 6/ 2024

أثر السياق القرآني في حماية العقل الإنساني وتصحيح المفاهيم الخاطئة

الدكتور محمد فيصل باحميش

أستاذ مساعد بقسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية– جامعة عدن

ملخص البحث

من المعلوم أن الإنسان هو حجر الزاوية؛ وعلى أكتاف قدراته العقلية ومهاراته الفنية تستقيم المجتمعات على عود النهضة والتنمية المستدامة، وقد هدفت هذه الدراسة إلى التعريف بمفهوم السياق القرآني ودوره في بناء الإنسان الفاعل والقادر على التعامل باحترافية مع قضايا الفكر المجتمعي، وكذا إبراز أثر السياق القرآني في حماية العقل الإنساني من الأخطار التي تهدد أمنه الفكري وتشل قدراته البنائية، وكذا الوقوف على فلسفة القرآن التربوية في وضع حلول مستدامة حماية للعقل من آفات سوء تقدير المواقف والقراءة السقيمة لمفاهيم الحياة، وكذا إبراز أثر السياق القرآني في صناعة التحول المفاهيمي ومحاربة الانحراف الفكري. وقد استخدم الباحث المنهج الوصفي ببعديه الاستقرائي والتحليلي في عرض الموضوع وربط الاستنتاجات بالتوجيه الإرشادي وتحقيق المقاربات التربوية اللازمة، ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة: أن السياق القرآني اهتم بحماية العقل الإنساني وسن التشريعات اللازمة التي تحافظ عليه من أي أخطار تحرفه عن مسار الإنتاجية الفكرية والكفاءة التحليلية، كما أن السياق القرآني أسهم بشكل فاعل في محاربة التطرف الفكري وأعاد ضبط بوصلة العقل الإنساني إلى قبلة القراءة الموضوعية لمشكلاته الاجتماعية، كما أن فلسفة القرآن التربوية أسهمت في بناء عقل إنساني قادر على إيجاد حلول مستدامة لتحديات الحياة، ومن أهم التوصيات التي توصل إليها الباحث: ينبغي على مؤسسات التربية ومراكز التأهيل إفراغ مساحة في خططها الاستراتيجية لضمان استيعاب السياق القرآني لما له من أثر في بناء الإنسان باعتباره لبنة التحول الأولى، وكذا ينبغي على مراكز البحث العلمي ودور النشر العلمي توجيه بوصلة الكتاب نحول هذه الموضوعات للكشف عن أداوت التربية القرآنية والإفادة منها في تحقيق التنمية المستدامة الشاملة.

الكلمات المفتاحية: السياق القرآني، العقل الإنساني، المفاهيم.

The effect of the Quranic context on protecting the mind and correcting the misconceptions

Dr. Mohammed Faisal Bahamish

Associate Professor in Aden University

Abstract

It is known that a man is a foundation, and on his mental abilities and skills, the societies are based on the principles of renaissance and sustainable development. This study aimed to introduce the concept of the Quranic context and its role in the building of the acting man who can professionally deal with issues of social thoughts; to highlight the impact of the Quranic context on protecting the mind from the risks that threaten his intellectual security and abilities; to study the educational philosophy of the Quran in providing sustainable solutions to protect the mind from the harms of misjudging of positions and wrong understanding of life concepts; and to highlight the effect of the Quranic context on making the conceptual shift and fighting the intellectual deviation. The researcher used the inductive-analytical descriptive approach in presenting the topic, linking the conclusions with guidance, and achieving the necessary educational approaches. The most important findings of the study are: the Quranic context is interested in protecting the mind and making necessary legislations that protect it from any dangers that deviate it from the course of the intellectual productivity and analytical efficiency. The Quranic context also has effectively contributed in fighting the intellectual extremism and in resetting the mind direction towards the objective reading of its social problems. The educational philosophy of the Quran has contributed in building the mind that is able to find sustainable solutions to life challenges. The most important recommendations of the study are: the educational institutions and rehabilitation centers should give some space in their strategic plans to the Quranic context because of its effect on the building of a man as he is the first building block of transformation; the scientific research centers and the scientific research publishing houses should direct the writers towards such topics to reveal the instruments of Quranic education and to benefit from them to achieve the comprehensive sustainable development .

Keywords: Quranic context, mind, concepts.

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الكون فأبدعه، وأوجد الإنسان من عدم وأحسن صورته، وميزه عن سائر مخلوقاته بعقل به هداه الطريق وأكرمه، والصلاة والسلام على البدر التمام، وخير الأنام، من إذا تكلم نطق بأحسن الكلام، وإذا صمت نطقت أخلاقه أعذب الألحان، وبعد!

أنزل الله القرآن الكريم ليكون منهاج حياة للإنسان وليأخذ بيده إلى مرافئ التمكين الفكري المستدام، وقد شكل سياقه اللفظي نقطة تحول فارقة في مسيرة البناء الفكري والأخلاقي والتربوي لمنظومة استقامته حتى يصبح إنساناً فاعلاً يعيش قلب حدث التأثير المجتمعي المستدام ولا يسلم فكره وقدراته العقلية لداء التنشئة الفكرية الخاطئة، وبما أن القرآن قد شكل مدرسة يستقي منها الإنسان عبارات التوجيه الفكري الصحيح بعيداً عن التفسيرات العاطفية والتصورات المغلوطة لمواقف الحياة ومشكلاتها المختلفة؛ فقد كان لزاماً علينا التنقيب بعدسة التحليل في نصوص ذلك الكتاب بحثاً عن استراتيجيات تحفظ للإنسان قوامه الفكري وتمنحه القدرة المهنية على مجابهة المشكلات التي تتهدد وجوده الأمني والأخلاقي والفكري.

من المعلوم أن القرآن الكريم أنزل لمقاصد جليلة وأغراض نبيلة، مبنية على مصالح العباد في دنياهم وأخراهم، ومتضمنة لأسباب السعادة في المعاش والمعاد، وفهم هذه المقاصد والأغراض الأساسية لنزول القرآن الكريم أمر لابد منه عند المفسر لكلام الله – عز وجل–، والإخلال به يؤدي إلى الوقوع في الخطأ عند تفسير كلام الله عز وجل[1].

وبما أن مدار البناء الفكري المستدام يتوقف على عقل الإنسان باعتباره لبنة التحول الأولى وصانع الرخاء والتنمية المستدامة؛ إذ أن على أكتافه التأملية تبنى الحضارات الإنسانية وتستقيم حياة البشرية على عود الإنتاجية والفاعلية فقد اهتم السياق القرآني بحماية عقل الإنسان وفكره من مشاريع الاستغلال الهدامة وأحاطه بسوار تشريعي منيع ليقيه السقوط في مستنقع التلويث والانحراف عن مسار التفكير المنطقي الإيجابي، وحتى لا يعكر صفو تحليليه المهني لمواقف الحياة؛ فقد منحت تلك التشريعات المرنة الحصانة اللازمة وحافظت على عقله في حالة جاهزية مثلى لإبقاء شعلة تفكيره متقدة وضمان عدم دخوله في قفلة التفكير السلبي عن الحياة والذات.

والمتأمل في السياق القرآني يجد بأنه تمحور حول بناء الفرد وعقليته، فكان المنهج القرآني عبارة عن مجموعة أنشطة تهدف إلى إحداث الترقية للفرد على الصعيد الجسدي والروحي والعقلي، وعلى صعيد لغته ومشاعره وعواطفه، فساعد ذلك في تشكيل المنهج التعليمي التربوي، وإن مواد الأنشطة التعليمية التي شكلت المنهج يهدف الى تثبيت الفؤاد وترسيخ الإيمان، وإلى بناء منهج قرآني تربوي يقوي النزعة التربوية ومتابعة الفرد، والتركيز على مبدأ الهداية والتنمية لما فيه من دلالات تربوية وحياة مستقيمة وأخلاق قويمة. وإلى تنشيط إعمال العقل والتدبر عند الفرد[2].

وبما أن قضايا الفكر من أعقد القضايا التي تمزق نسيج أمن الإنسان الأخلاقي وتهدد مستقبله الوجودي؛ فقد اهتم السياق القرآني بهذه القضية الحساسة وأفرغ لها مساحة من التعاطي الإيجابي؛ لأن السكوت عن التطرف المفاهيمي وغض الطرف وعدم المبالاة يعني جر الإنسان إلى مستنقع التطرف ومنحه الإذن ليكون إنساناً منحرفاً لا يسهم في البناء، وفضلاً عن ذلك يكون معول هدم وسهماً مسموماً في خاصرة النهضة والتنمية المستدامة؛ لهذا المتتبع بعمق لنصوص السياق القرآني يجد بأنه وقف بحزم أمام الانحراف الفكري ولعب دوراً محورياً في تصحيح المفاهيم والتصورات الخاطئة في جميع ملفات الحياة الإدارية والعلمية والفكرية والاجتماعية والعقدية.

إن حماية فكر أفراد المجتمع المسلم من الانحراف من أهم الضروريات التي ينبغي أن تتجه إليها الدراسات، ويعنى بها الباحثون، فضلا عن أن يتصدى لها المسؤولون عن سلامة المجتمع وأمنه، ذلك أن سلامة الفكر ولزومه الحق من أهم الأمور التي تحقق استقرار المجتمع، بخلاف انحرافه فإنه يترتب عليه من المخاطر ما لا يترتب على غيره[3]، ولهذا جاء هذا البحث الموسوم بـ" أثر السياق القرآني في حماية العقل الإنساني وتصحيح المفاهيم الخاطئة" ليضع نقاط البيان على حروف صناع الفكر وتوجيه بوصلتهم التربوية نحو قبلة السياق القرآني للإفادة منه في بناء جيل التمكين والنهوض.

- **أهداف البحث:** ويهدف هذا البحث إلى تسويق بعض الأفكار المهمة، منها:

- بيان الدور الإيجابي الذي يلعبه السياق القرآني في تربية الإنسان وبناء قدراته وتأهيله فكرياً ليتسلم مشعل القيادة ويحقق مفهوم الاستخلاف الفاعل والمؤثر.
- إبراز أثر السياق القرآني في حماية عقل الإنسان من خطر الانحراف ومن المفاهيم

المغلوطة التي تهدد سلامته وأمنه الفكري.

- استنباط السياقات القرآنية التي أخذت على عاتقها محاربة المفاهيم المغلوطة وإعادة عقل الإنسان إلى مسار الانضباط العقلاني من خلال القيام بالمقاربات التربوية اللازمة.
- توجيه بوصلة صناع القرار ومن يرسم مداميك التربية الإنسانية إلى ضرورة توجيه عدسة البحث والدراسة لمثل هذه الموضوعات لما لها من دور في صناعة الإنسان الفاعل وتحقيق النهضة الفكرية المستدامة.

- **أهمية الموضوع وأسباب اختياره:** ولعل أهمية الموضوع تكمن في الآتي:

تتجلى أهمية الموضوع في كونه يسلط ضوء النقد والتحليل على أهم المؤثرات التي تسلب العقل الإنساني أهليته وتحرفه عن مسار التفكير والاستغلال الأمثل لقدراته في سبيل تأمين حياة إنسانية كريمة قائمة على مبدأ الاستخلاف الفاعل والمؤثر، كما تنبع تلك الأهمية كون البحث سيناقش بأدوات التحليل العلمي أهم الانحرافات الفكرية والمفاهيم الخاطئة التي تهدد أمن المجتمع وتهدد سلمه الاجتماعي، بل إن ترك لها حبل الغارب مزقت نسيج التعايش وأصابت اللحمة المجتمعية بمقتل، هذا النقاش العلمي سيفضي إلى حلول ومعالجات مستدامة تقضي على تلك الظواهر الفكرية الدخيلة، وتخلص المجتمع الإسلامي من ويلاتها وتأثيراتها السلبية المستدامة.

- **أسباب اختيار الموضوع:** فلعلها تكمن في الآتي:

- لفت نظر القارئ والباحث الكريم إلى السياق القرآني وإظهار فلسفته التربوية في علاج القضايا والظواهر الفكرية السلبية التي تمزق نسيج التعايش، وتهدد أمن الإنسان الفكري، وأنه لابد من جعله مرجعية تربوية رئيسية في التقويم التربوي.
- الأمة الإسلامية في العصر الراهن تعاني من أزمات فكرية وانحرافات أخلاقية، وما اختيار هذا الموضوع إلا إسهاماً من الباحث في تسليط الضوء على هذه الانحرافات ووضع المعالجات التربوية المستدامة على طاولة صناع القرار ورواد التربية.
- إثراء المكتبة المعرفية بدراسة علمية قائمة على أداوت البحث العلمي تناقش موضوعاً حساساً بغية تحقيق الأمن الأخلاقي والذي يكون عبر حماية العقل وتأمين تفكيره، وكذا حماية المجتمع من خطر الانحرافات الفكرية الهدامة.

- **الدراسات السابقة:**

وجدت بعض الدراسات والأبحاث العلمية التي ناقشت الموضوع بطريقة أو بأخرى ولكنها إما تسلط الضوء على تصحيح المفاهيم الخاطئة أو الحديث عن العقل وسبل الحفاظ عليه دون الجمع بينهما، ولعل أهم ما يميز بحثي عن تلك الأبحاث هو أنه جمع ما بين أساليب حماية العقل الإنساني وتصحيح المفاهيم الفكرية الخاطئة، وأيضاً الفلسفة العلاجية المستدامة نابعة من السياق القرآني ذاته بعيداً عن مفاهيم التنظير الفكري، وهذه قائمة بأهم الدراسات العلمية:

-**مفاهيم ينبغي أن تصحح في ضوء القرآن الكريم، للبروفيسور/** عبدالعزيز بايندر، عضو هيئة التدريس في كلية الإلهيات، جامعة استانبول، قام باستقراء مجموعة من المفاهيم الخائطة التي غلب عليها الطابع الشرعي، وعمل على مناقشتها علمياً مدللاً على ذلك بأقوال الفقهاء والمفسرين.

-**مصطلح العقل في القرآن الكريم ووسائل الحفاظ عليه: دراسة قرآنية مقاصدية،** للدكتور/ بك زكوب عبداللي، والدكتور/ ياسر محمد المحاضران في جامعة المدينة العالمية، ماليزيا، ولقد ضمنا بحثهما الدلالات المختلفة للعقل في القرآن، وعرجا على أهم سبل الحفاظ على العقل الإنساني، وعمدا ذلك بإحصائيات رقيمة تثبت أهمية الحفاظ على عقل الإنسان بعيداً عن المؤثرات السلبية.

-**الانحراف الفكري ووسائل الوقاية والعلاج في ضوء القرآن الكريم،** للدكتورة/ داليا محمد شوقي محمد، وقد قامت الفلسفة البحثية على الاستدلال ببعض الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع الانحراف الفكري، واستنبطت ما تضمنته من أسباب للانحراف ومخاطره، ثم تطرقت إلى أساليب الوقاية والعلاج، وتعزيز تلك المفاهيم ببعض الأحاديث النبوية وأقوال العلماء من أهل الاختصاص.

وما عدا هذه الدراسات فهناك الكثير منها على شكل مقالات ومنشورات على الشبكة العنكبوتية لا ترقى إلى منزلة أبحاث علمية كونها لم تستند على أداوت البحث العلمي، وقد ناقشت في مجملها أسباب الانحراف الفكري وسبل الوقاية إلا أنها لم تحط بالموضوع من كافة زواياه.

ISSN (Print) 3006 - 7561 ISSN (Online) 3006 – 757X

- **منهج البحث:**

اتبع الباحث المنهج الوصفي بأداتيه الاستقراء والتحليل، من خلال استقراء النصوص القرآنية التي اهتمت بحماية عقل الإنسان وتصحيح مفاهيم الفكر الخاطئة، ومن ثم القيام بتحليل تلك النصوص عن طريق استخدام أدوات التحليل للوقوف على فلسفة السياق القرآني في التحصين العقلي وتصحيح المفاهيم الخاطئة ورسم صورة نمطية إيجابية بأهمية الأدوار التي يلعبها السياق القرآني في بناء قدرات الإنسان وصناعة التحول الفكري.

- **خطة البحث:**

لعنوان البحث الأثر الفاعل في هيكلته وتقسيمه، وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يقسم إلى ثلاثة مباحث وخاتمة.

وهذه إشارة إجمالية للهيكلة العامة له:

المبحث الأول: السياق القرآني مفهومه وأهميته:

المطلب الأول: مفهوم السياق القرآني.

المطلب الثاني: أهمية السياق القرآني.

المبحث الثاني: أثر السياق القرآني في حماية العقل الإنساني:

المطلب الأول: أثر السياق التشريعي في حماية العقل الإنساني.

المطلب الثاني: أثر السياق التوجيهي في حماية العقل الإنساني.

المبحث الثالث: أثر السياق القرآني في تصحيح المفاهيم الخاطئة:

المطلب الأول: أثر السياق القرآني في تصحيح المفاهيم العقدية.

المطلب الثاني: أثر السياق التوجيهي في تصحيح المفاهيم الاجتماعية.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: مفهوم السياق القرآني وأهميته

قبل الكلام عن التحليل التربوي للسياقات القرآنية ونبين لك دوره في صناعة التحول الفكري وحجب العقل الإنساني عن أي خطر قد يهدد سلامه الفكري وينحرف به عن مسار التفكير الإيجابي؛ تحتم علينا الضرورة العلمية أولاً وضعك في صورة مفهوم السياق حتى تلج إلى سطور هذا البحث وعندك صورة مسبقة عن مفهوم السياق تسهم في تقريب المفاهيم وتعبد لك طريق الاستيعاب المعرفي، فنقول وبالله التوفيق:

المطلب الأول: مفهوم السياق القرآني:

أولاً: السياق لغة:

المعاجم اللغوية أسهمت بشكل فاعل في وضع نقاط البيان وكشف لثام الخفاء عن هذا المصطلح وإليك بعض تلك الأقوال الكاشفة لجوهر السياق ودلالته الإيحائية:

قال ابن فارس: "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء. يقال ساقه يسوقه سوقا. والسيقة: ما استيق من الدواب. ويقال سقت إلى امرأتي صداقها، وأسقته. والسوق مشتقة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق. والساق للإنسان وغيره، والجمع سوق، إنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها"[4].

وقال الزمخشري:" ومن المجاز: ساق الله إليه خيراً. وساق إليها المهر. وساقت الريح السحاب.... والمحتضر يسوق سياقاً، وفلان في ساقة العسكر: في آخره، وهو جمع سائق كقادة في قائد، وهو يساوقه ويقاوده وتساوقت الإبل: تتابعت، وهو يسوق الحديث أحسن سياق و "إليك يساق الحديث" وهذا الكلام مساقة إلى كذا وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده.... وقامت الحرب على ساقها. وكشف الأمر عن ساقه"[5].

وقال ابن منظور في شرح مادة سوق: "ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً وسياقاً، وقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾ (ق: 21)، وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت"[6].

وقد وردت في القرآن الكريم بألفاظ مختلفة هي (نسوق، سيق، سائق، يساقون، المساق)[7]، ومنه قوله تعالى:﴿ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدًا ﴾ (مريم: 86)، وقد فسر المعنى نحث المجرمين على المسير إلى جهنم عطاشى كالإبل[8].

من خلال هذه النقول يتبين بأن السياق له أكثر من دلالة لغوية منها التتابع والاتصال ولكن ما يهمنا من هذه الدلالات هو أسلوب الكلام وسياقه الذي ورد فيه والذي يوظف في إفادة المعنى المراد، والسياق القرآني ورد للدلالة على مفاهيم قد تعرف بإشارة صريحة أو بإشارة ضمنية عن طريق قرائن سياقية معينة.

ثانياً: السياق اصطلاحاً:

تباينت أقوال العلماء قديماً وحديثاً في الكشف عن جوهر السياق وبعده البنائي من الناحية الاصطلاحية تبايناً وصل إلى درجة المفارقة السياقية والنزاع اللفظي ونحن بدورنا سنقوم باستعراض ذلك التباين ولكن بإيجاز؛ لأن وريقات البحث ليس فيها مساحة لتحرير محل النزاع المعرفي، ثم سنضع رؤيتنا الفنية حول مفهوم السياق القرآني حتى يكون القارئ على بينة من أمره ولا يدخل في دومة الاضطراب العلمي وتنخفض أسهم الإدراك لديه، فنقول وبالله التوفيق:

الفريق الأول: يرى أصحاب هذا القول بأن السياق يقتصر على فحوى المقال أو بما يسمى في علم اللغة العربية بالسياق اللغوي دون الإشارة إلى مقتضى الحال وما يحيط بالنص من قرائن إيحائية، وإليكم بعض تعريفاتهم:

عرفه ابن دقيق العيد بقوله: "أما السياق والقرائن: فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه. وهي المرشدة إلى بيان المجملات، وتعيين المحتملات"[(9)].

وعرف الباحث نصر السياق ودلالته بالقول: "تتابع الكلام وتساوقه وتقاوده، وفهم النص بمراعاة ما قبله وما بعده"[(10)].

وعرفه العامري بقوله: "هو بناء كامل من فقرات مترابطة في علاقته بأي جزء من أجزائه أو تلك الأجزاء التي تسبق أو تتلو مباشرة فقرة أو كلمة معينة، وهو ما يسمى بالقرينة الحالية إذ أنه قد يعبّر عن القرينة الحالية بالسياق"[(11)].

الفريق الثاني: وقد توسع أصحابه في توصيف السياق فهو لا يقتصر على المقال؛ إذ شمل مقتضى الحال مع الأخذ بعين الاعتبار الأحوال والقرائن التي سيق فيها ذلك الخطاب بغية الوصول لمعرفة مقصد المتكلم، ومن تلك التعريفات الآتي:

عرفه نصر بأنه: "هو ما انتظم القرائن الدالة على المقصود من الخطاب، سواء كانت القرائن مقالية أو حالية"[(12)].

وعرفه المطيري بأنه: "ما يحيطِّ بالنص من عوامل داخلية أو خارجية لها أثر فهمه: من سابق أو لاحق به، أو حال المخاطِبِ أو المخاطَبِ، والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه"[13].

وقال الراسخ: "السياق هو الذي تتابع الكلام لأجله مدلولاً عليه بلفظ المتكلم، أو حاله، أو أحوال الكلام، أو المتكلم فيه، أو السامع"[14].

من خلال النظر في الأقوال وتحليل فحوى تلك المفاهيم تبين بأن هناك نزاعاً علمياً ومعرفياً حول توصيف مفهوم السياق وتأطير أبعاده بين قول اقتصر على السياق اللفظي بعيداً عن الأخذ بالقرائن والأحوال التي تسهم في تشكيل هوية الموقف الخطابي ورفع إشكال الجهالة، وبين قول توسع وأدخل في مفهوم السياق ما هو منه ولا يمكن أن ينفصل عنه جمعاً بين فحول المقال وتفسير الحال، وإن كنت على المستوى الشخصي أجنح إلى القول الثاني على اعتبار أنه لا يمكن أن يفهم السياق مجرداً من بعده الحالي وسياقه الدلالي، وبحكم أن بحثنا يتناول السياق المقالي ودوره في تعزيز مفاهيم الحصانة وتصحيح المفاهيم فإني أجد نفسي مجبراً على التعامل مع المفهوم الأول للسياق لأنه يؤدي غرض البحث ويحقق مقصده الدلالي.

والملاحظ بأن الكتاب قبلي قد أسالوا حبر النزاع على السياق باعتباره مصطلحاً شاملاً يندرج تحته جميع أنواع السياقات المعروفة في علوم اللغة ومفردات القرآن السياقية، ومع ذلك يرى الباحث ضرورة إفراد السياق القرآني بمفهوم خاص يوضح جوهره ويحدد أبعاده ويتخذ كمنطلق علمي إلى رحاب الاستنباط السياقي من النص القرآني، ومن تلك التعريفات الآتي:

يعرفه المثنى بقوله: "هو تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، من دون انقطاع أو انفصال"[15].

وعرفه نصر بأنه: "الأغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها جميع معاني القرآن إلى جانب النظم الإعجازي والأسلوب البياني الذي يشيع في جميع تعبيراته"[16].

وعرفه المطيري بقوله: "تتابع المفردات والجمل والتراكيب القرآنية المترابطة لأداء المعنى"[17].

ويمكن للباحث تعريف السياق القرآني إجرائياً بالآتي: هو جملة النصوص القرآنية التي سيقت عرضاً من قبل المشرع سبحانه وتعالى بغية إرساء القوانين المنظمة لحياة

الإنسان أو لتصحيح مسار القضايا التي انحرفت عن سلك قبلة التفسير العقلاني في مشهد سياقي يتسم بالوحدة الموضوعية والترابط المهني.

المطلب الثاني: أهمية السياق القرآني في تحقيق التنمية الفكرية:

لعب السياق القرآني دوراً محورياً في بناء الإنسان واستنهاض قدراته وتوسيع مداركه العقلية إيماناً منه بأن الإنسان هو حجر الزاوية في بناء المجتمعات وعلى أكتافه تتحقق التنمية والنهضة المستدامة، ولأن معادلة البناء بحاجة إلى أن يكون الإنسان هو نقطة الارتكاز؛ فقد تمثلت الفلسفة البنائية المهنية للسياق القرآني بالآتي:

(1)يرصد السياق القرآني الظواهر السلبية التي غرد بها فكر الإنسان خارج سرب الموضوعية ويعمل على توصيف تلك الظواهر توصيفاً علمياً ثم يسهم في وضع الحلول والمعالجات المستدامة لضمان عدم التعاطي السلبي معها حتى لا تحرف الإنسان عن مسار الفاعلية وتحقيق مبدأ الاستخلاف.

(2)يسهم السياق القرآني في إزالة الإشكال ورفع الغموض الذي يكتنف بعض النصوص القرآنية وذلك عن طريق رد المتشابه إلى المحكم والمطلق إلى المقيد والعام إلى الخاص، وإعادة قراءة النصوص وفقاً لاستراتيجية البعد الزمني فيتضح المقال ويزال اللبس والإشكال، ولقد أفاد منه النبي -ﷺ- في رفع لثام الجهالة عن بعض المعاني فعن عبدالله -رضي الله عنه-، قال: لما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾ (الأنعام: 82)، قلنا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: "ليس كما تقولون ﴿ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ ﴾(الأنعام: 82) بشرك، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ (لقمان: 13)"[18].

(3)يلفت السياق القرآني عناية الإنسان إلى ضرورة تفعيل أدوات التعلم والاستخدام المهني لها باعتبارها أداة الاكتساب المعرفي الأولى ومن ثم إطلاق عنان التدبر والتأمل لها حتى لا يلدغ الإنسان من حجر الإعراض والسقوط في مستنقع المكابرة الفكرية، ولضمان عدم البقاء في مربع التقليد والاستنساخ الفكري.

(4)السياق القرآني هو العمدة في كثير من مواطن الترجيح والاستدلال، ولا يستطيع المفسر أن ينسلخ عنه جملة؛ لأنه سيصل إلى طريق مسدود من المعاني غير المترابطة[19].

(5)يعين السياق على تحديد أسلوب الكلام، حين يخالف ظاهره المقصود به، وذلك حين يأتي التعبير بالماضي والمقصود المضارع أو العكس، وحين يكون الأسلوب ظاهره الخبر والمقصود به الإنشاء، وهكذا على أن الاختلاف له غرض في بيان المعنى. مثاله قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ (البقرة: 228)، وقوله: ﴿ * وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾ (البقرة: 233)، الأسلوب أسلوب خبر، لكن المراد من ذلك الأمر، والمرشد هو السياق، لكنه كان على الخبر تأكيداً، فكانت الصيغة مقصودة[20]. قال الزركشي: "فإن السياق يدل على أن الله تعالى أمر بذلك لا أنه خبر وإلا لزم الخلف في الخبر"[21].

(6)قال ابن تيمية مبيناً أهمية السياق في إيضاح معالم الفهم الصحيح للنص القرآني: "فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها وعرف مقصود القرآن: تبين له المراد وعرف الهدى والرسالة وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج. وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين"[22].

المبحث الثاني: أثر السياق القرآني في حماية العقل الإنساني

لأن العقل الإنساني هو صمام أمان الازدهار الحضاري وراسم مداميك النهضة والتنمية المستدامة فقد أحاطه القرآن الكريم بسياج منيع من الحصانة التشريعية حتى لا ينحرف عن بوصلة الأداء الفكري ويتوقف عن ممارسة فنون التفكير الإبداعي والريادي، فالمتتبع لنصوص القرآن وسياقاته التربوية يجد بأن فلسفة القرآن قامت على استراتيجية التحصين الاستباقي للعقل الإنساني وطرق أبواب بعض القضايا الفكرية حتى يحرك مياه الفكر الإنساني والبحث عن حلول مستدامة لما يؤرق سكونه النفسي، وليس أدل على اهتمام السياق القرآني بعقل الإنسان هو مرونته في استعمال الدلالات المختلفة التي تعلي شأن العقل وتلفت نظر الإنسان إلى تنمية قدرات التفكير العليا لديه.

لقد أوجب الشارع المحافظة على العقل، وعدم تعرضه للتلف، وذلك بوسائل عدة. إلا أن تجاهل هذه الوسائل؛ توجب اختلال العقل، وإذا اختل العقل الإنساني؛ اختل نظام الأمة بوجه ما، وعلى هذا يجب على الإنسان أن يعلم أن عقله ليس خالصاً له، بل لله فيه الحق، وللمجتمع فيه حق، ومن هنا وجب الأخذ بوسائل المحافظة عليه وعدم تعريضه

للتلف؛ صيانة لحق الله فيه، ثم لحق المجتمع[23]. وقال النووي: "اختلف الناس في العقل ما هو فقيل هو العلم وقيل بعض العلوم الضرورية وقيل قوة يميز بها بين حقائق المعلومات"[24].

وإليك بعض أساليب حماية العقل الإنساني في القرآن:

المطلب الأول: أثر السياق التشريعي في حماية العقل الإنساني.

1- حماية العقل بتحريم الخمر والمسكرات:

لأن المسكرات بأنواعها تتلف العقل وتمزق نسيج التفكير المنطقي، وتحجب العقل عن ممارسة فنون التفكير الإيجابي وبالبحث بعدسة التحليل عن الحلول المستدامة لمشاكله المجتمعية وتوظيف قدراته في بناء حضارته الإنسانية، بل وتلك المسكرات تخامر العقل وتحجب عن الإنسان ضوء الحقيقة وتعجل بسقوطه من مرتبة الاصطفاء والاستخلاف إلى قاع الضياع والانحراف؛ لهذا اهتم السياق القرآني بالعقل الإنساني وشرع القوانين النافذة التي تقطع دابر الانتهاك الصارخ لقواعد الاستخدام الآمن وتمنعه من الاستغلال السلبي لقدراته العقلية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(المائدة: 90).

وبما أن شرب الخمر وتعاطي المخدرات يجعل الإنسان يخلع ثوب العقلانية وينزع عن أفعاله ثوب الحكمة ويصبح إنساناً عاجزاً لا حيلة له في ضبط إيقاع تصرفاته والتحكم بسلوكياته فتعصف به رياح الشهوات وتسوق نزواته أعاصير المتع المجردة من قيود الرقابة الذاتية؛ لهذا شدد السياق القرآني في هذه القضية ووضع حواجز المنع الحمراء حتى لا يتم القفز فوقها والوقوع في مستنقع الإسكار المحرم.

يقول الغزالي: "إن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الحق وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم، لكنا نعني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع ومقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم وأنفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة"[25].

2- حماية العقل بتحريم الجلوس في مجالس اللغو:

لأن الصديق بمثابة مؤشر أخلاقي يسهم في ضبط أفعال الإنسان وتوجيه بوصلتها صوب قبلة الاستقامة الفكرية، وهو يمثل مرآة نقدية ينظر الإنسان من خلالها إلى صواب أفعاله من عدمه؛ لهذا شدد السياق القرآني في هذه القضية وطالب الإنسان بأن يكون انتقائياً عند اختيار شركاء المجلس ورفقاء الدرب فإن الصديق الجيد يسهم في بناء فكر الإنسان ويساعد في صقل مهارات التفكير لديه، وفي المقابل الجليس السيء يطمس معالم التفكير بألوان الخداع الوعظي، وتسهم أفكاره المارقة في تدمير منظومة القيم، وشل قدرات التفكير المقاصدي، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (النساء: 140)، وقال أيضاً: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنعام: 68).

قال أبو زهرة:" وفيه تحذير للمؤمنين من أن يجالسوا المنافقين إذا استهزءوا بآيات الله تعالى، وسخروا من الأحكام الإسلامية؛ لأن سماع الشر شر؛ ولأن سماع الاستهانة بالقرآن قد تؤدي إلى الاستهانة من السامع، فأول الشر سماع الشر، وإن أولئك المنافقين يبدو في مجالسهم كلمات الكفر وكلمات الاستهزاء"[26].

فجلوس الإنسان على طاولة الأخذ والعطاء الفكري مرهون بقدرته على إدارة دفة الحوار والتحكم بنتائجه حماية له من الأفكار الهدامة، فإذا ما شعر الإنسان بعدم قدرته على ضبط إيقاع الأفكار وبأن زمام التحكم قد أفلت من يده ينبغي أن يغادر مائدة النقاش السلبي فوراً ولا يسمح لعقله بأن يتغذى على الأفكار المارقة من جراب السب والشتم والاستهزاء، فإن ذلك الطرح غير الهادف يضعف عقليته ويصيب مراكز التفكير لديه بداء البلادة النقدية.

المطلب الثاني: أثر السياق التوجيهي في حماية العقل الإنساني:

(أ) حماية العقل بالتحذير من التنشئة الاجتماعية السلبية:

من المعلوم بأن الأسرة هي الحضن التربوي الدافئ، وهي ملاذ التربية الفكرية الآمن وفيها يتشرب الإنسان الأفكار سواء أكانت بناءة أو هدامة، فإما أن يسهم ذلك المجتمع في بناء قدرات الإنسان الفكرية ومنحه ضوء الاختيار الأخضر بتبني الأفكار والقناعات مع القيام بالوعظ التوجيهي اللازم، وإما أن يفشل ذلك المجتمع في بناء عقلية الإنسان وصقل مهاراته العقلية ويجبره على اقتفاء أثر التبعية دون أن يحرك ساكن الاختيار؛ لهذا جاء السياق القرآني محذراً من داء التقليد الأعمى وتسليم العقل على طبق من جمود لداء التشكيل السلبي في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (البقرة: 170)، وقال أيضاً: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾ (المائدة: 104).

يقول الناصري: "من هناك اتجهت الآيات الكريمة إلى استنكار التقليد الأعمى، وإلى الحض على ترك التقاليد المستهجنة، المتوارثة عن عهود الجهالة والضلالة، والدعوة إلى اتباع الحق الذي أنزله الله نوراً وهدى، وهذه الدعوة تتضمن إعمال الفكر فيما يجد عليه الأبناء آباءهم، وتتطلب عدم الاتكال على المألوف والرضى بالمتعارف دون نقد ولا تمحيص، وتقتضي هذه الدعوة بالأخص وزن التراث المتلقى من الآباء والأجداد بميزان الوحي والعقل، فما وافقهما كان حرياً بالاتباع، وما خالفهما كان حرياً بالإهمال"[27].

والتقليد الأعمى هو سبب قوي للانحرافات الدينية والفكرية والسلوكية، وغشاء من الأغشية على العقل من الانطلاق والتدبر والتفكر، وقد وردت آيات كثيرة تندد بالتقليد الأعمى والسير على خطى الآباء دون تفكير أو إرادة أو وعي، وهو ينشأ عادة عن التعصب، والثقة المطلقة بالشخص الذي يقلده...والتقليد دون بصيرة تجبر تقود المقلد إلى الوقوع في الأخطاء[28].

وبما أن الله خلق الإنسان حراً حذره من أن يضع على فكره أصفاد التبعية ويقتفي

الأثر دون دراسة وتمحيص، لأن ذلك الاقتفاء يقود الإنسان إلى مستنقع الأخطاء ويجعله كالكرة بين أقدام التشكيل الفكري، وعندما تباهى أولئك القوم بأنهم يقتفون أثر الآباء طمعاً في بلوغ محطة الهداية الزائفة بقولهم: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ (الزخرف: 22)، عرض عليهم السياق القرآني مشروع تحكيم العقل واتخاذه أداة مهنية لتمييز الحق عن الباطل ليكون اختيار القناعات وبناء الاتجاهات مبني على قناعة شخصية بعيداً عن لغة التأثير العاطفي ومفردات التوجيه الأسري فقال: ﴿ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ (الزخرف: 24).

(ب)توجيهات قرآنية متنوعة تسهم في حماية العقل والفكر الإنساني[29]:

(أ)التمسك والاعتصام بالقرآن والاستقامة على هديه: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ (الحجرات: 1) ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ (آل عمران: 103)، القرآني بهذه النصوص هدف إلى تحصين عقل الإنسان من الأفكار المتطرفة والنظر إلى الأمور من زاوية الشرع وهذا من شأنه تقليل مساحة الانحراف، وإجبار العقل الإنساني على احترام مساحة التفكير الذي منحه إياها خالقه، وكل عقل غرد خارج الاتزان أسلم نفسه لمشاريع الابتزاز الفكري، وصار عرضة لمشاريع الاستثمار الفكري المنحط.

قال الشنقيطي:" ولو كان المسلمون يتعلمون كتاب الله وسنة رسوله – ﷺ– ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصناً منيعاً لهم من تأثير الغزو الفكري في عقائدهم ودينهم، ولكن لما تركوا الوحي ونبذوه وراء ظهورهم؛ وجد الغزو الفكري طريقاً إلى قلوب الناشئة من المسلمين، ولو كان سلاحهم المضاد القرآن والسنة لم يجد إليهم سبيلاً"[30].

قال أبو حيان:" نهوا عنه من الإقدام على أمر دون الاهتداء على أمثلة الكتاب والسنة والمعنى: لا تقطعوا أمراً إلا بعد ما يحكمان به ويأذنان فيه، فتكونوا عاملين بالوحي المنزل، أو مقتدين برسول الله ﷺ"[31].

وحتى يكون الإنسان رهن إشارة المصلحة الإيجابية في حركاته وسكناته؛ فقد طالبه السياق القرآني بعرض أفعاله على مقياس الشرع ووزنها بميزان المصالح والمفاسد،

والنظر إلى شاشة التقييم القرآني قبل إيقاع الفعل بقوله: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ (هود: 112)، وهذا من شأنه إبقاء المكلف في مربع الاتزان والصلاح وضمان عدم انحرافه إلى مستنقع السقوط الأخلاقي والفكري.

قال سيد قطب معلقاً على الآية:" وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة، لم يكن نهياً عن القصور والتقصير، إنما كان نهياً عن الطغيان والمجاوزة.. وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرج قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر. والله يريد دينه كما أنزله، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير. وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة، لإمساك النفوس على الصراط، بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء"[32].

(ب) طلب العلم وبناء القدرات العقلية: قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ (النساء: 83)، وحتى يكون المسلم في منأى عن سهام التأثير الفكري وبعيداً على مشاريع التبعية والانحراف الفكري؛ فقد طالبه السياق القرآني بالاحتماء تحت سقف العلم والارتماء في أحضان العلماء عند تلاطم موج الشبهات وارتفاع أسهم الباطل، فالعلم هو خط الدفاع الأول يحيط الإنسان بسياج من التنوير ويضيء له دهاليز الظلام.

لهذا كان نقص العلم الشرعي عند أصحاب الفكر المنحرف من أول المسببات في تفشي الأفكار المنحرفة بينهم... فالجهل له أثر كبير في الضلال والإضلال وانتشار البدع والشبهات وغيرها من الفتن، فعلم من هذا أن طلب العلم الشرعي والتأصل فيه على يد العلماء الربانيين الراسخين سبب عظيم لترك الانحراف، ناهيك عن أثره الكبير في الوقاية والتحصين والمعالجة من الانحراف الفكري"[33].

(ج) التربية الفكرية والعبادية: التربية على القيم والمبادئ السامية من أهم عوامل التي تسهم في تحصين العقل من سهام الأفكار الطائشة وتمده بما يلزم من أدوات ليكون عاقلاً فاعلاً ومؤثراً، وعنده القدرة على نقد المشاريع الضالة والوقوف بثبات أمام موجات

الانحراف والغزو التي تستهدف العقول، وأهم ملامح تلك التربية الاعتناء بالجانب العقدي وتأمين العقل من مشاريع الإلحاد والانحراف الفكري، وفي وصية لقمان لابنه خير شاهد على أن الأسرة تلعب دوراً محورياً في التحصين الفكري وهي لبنة الحماية الأولى، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: 13) وأيضاً من ملامح ذلك التحصين التربوي هو تنشئة الشباب على الشعائر التعبدية التي تسهم في مدهم بطاقة روحية لمجابهة مشاريع التلويث الروحي، والصلاة تأتي في رأس أولويات تلك المنظومة التربوية، قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت: 45).

فالتربية الإيمانية والوسطية متى ما التزم بها في الحياة، تحقق الأمن الفكري بإذن الله، فيكون لدى الفرد القدرة على التمييز بين الصحيح والسقيم من الثقافات والأفكار الوافدة، ويكون لديه مناعة تحميه من الانجراف وراء الدعاوى الفاسدة الخارجة عن منهج الحق، حيث إن صيانة الفكر وأمنه يحقق للفرد المسلم توازناً في حياته الخاصة والعامة، ويبعده عن دواعي القلق والتناقض، وبالتالي فهو يحقق الأمن للمجتمع والدولة[34].

(د) الرفقة الصالحة: من العوامل التي تسهم في التحصين الفكري وتحمي عقل الإنسان من الأفكار الهدامة هو اختيار الصداقات التي تحيط بمعصمه الفكري كما تحيط الأسورة بمعصم اليد، فإن الإنسان يتأثر بجلسائه صلاحاً وفساداً؛ ولهذا أمر السياق القرآني بضرورة التحلي بعقلية الانتقاء عند التفتيش في قاموس الأصحاب حتى يظل نسيج الصداقة ممتداً ولا يتعرض للقطع بسبب الأهواء ومصالح الابتزاز الضيقة، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: 67)، فكم من صداقة لم تبن على أسس التقوى والتناصح كان مصيرها العداء، وانقلبت رأساً على عقب، وكم من صديق جر صاحبه إلى مزالق الردى وسلم عقل صديقه على طبق من تزيين لمشاريع الإغواء والانحراف والتطرف، فإذا أردت أن تعرف نفاسة معدن الإنسان الأخلاقي وجودة تفكيره العقلي فانظر إلى الحلقة الضيقة من الأصحاب التي تحيط به.

قال ابن كثير:" كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان

لله –عز وجل–، فإنه دائم بدوامه"[35].

يتّضح من خلال هذه الآية –وغيرها–، مدى تأثير البِيئة الاجتماعية التي تَشمل دائرة الأسرة، والمدرسة، والأصدقاء، وكلّ مظاهر الحياة في المجتمع، على سلوك الإنسان؛ وذلك بأخذه إلى الطَّاعة، أو دفْعه إلى المَعصية[36].

ولولا ضيق مساحة البحث لأسهبنا في إسالة حبر التوثيق لنصوص قرآنية أسهمت بشكل مباشر في تحصين العقل الإنساني من مشاريع التضليل الفكري، ولأخذنا القارئ في جولات تأملية في بساتين السياق القرآني ليقطف ثمار البناء المهني لعقليته ويصل به إلى مرحلة نقد الفكرة قبل تحويلها إلى مسلمات غير قابلة للمساس، والنظر العلمي القائم على المقاربات الفكرية.

المبحث الثالث: أثر السياق القرآني في تصحيح المفاهيم الخاطئة

أنزل القرآن الكريم لتنظيم الحياة وبناء الإنسان القادر على لعب دور استثنائي في مسيرة الاستخلاف الإلهي، ولأن مشوار الاستقامة الفكرية يبدأ بتصحيح الفهم؛ فقد اهتم السياق القرآني بهذه القضية الحساسة وأولاها جل اهتمامه فالأمم التي حادت عن طريق الانضباط العقدي والأخلاقي وقعت أولاً في شرك الفهم الخاطئ والتصور القاصر لأبعاد الحياة حتى وصلت إلى مرحلة التطرف الفكري، وحتى تثبت علو كعبها في مضمار الأحقية عملت على تطويع كل شيء يعترض طريقها لخدمة مآربها وتحقيق أجندات ذلك الفكر المغلوط.

تتجلى هذه الانحرافات في مواقف وتصرفات وسياسات تدل على ذلك، وتساعد في فهمها وتشخيصها ومعالجتها. وهذه المظاهر كثيرة ومتنوعة ومتداخلة, وهي تتصل بعالم الأفراد والأشخاص, كما تتعلق بعالم المؤسسات والمجتمعات والدول, وهي مجموع ما يمثل زيغاً عن الطريق السوي في عالم الأفكار والمعارف والعلوم, وفق حقائق ذلك ومناهجه وأعرافه ومقارباته[37].

ولأن عقل الإنسان جبل على مرونة التفكير ونبذ الجمود والكسل التفكيري فقد أبدع العقل الإنساني في بناء حاضره والتخطيط لمستقبله بما يحقق له حياة كريمة خالية من المنغصات وبعيدة عن مشاكل التطرف بأبعاده المختلفة؛ إلا أن الإنسان وعلى مر العصور أساء استخدام العقل ووظف قدراته الذهنية لخدمة مشاريع الانحطاط الفكري

وقراءة مواقف الحياة قراءة غير سوية نتج عنها ذلك الفكر المغلوط الذي يمزق نسيج الفاعلية ويهدد العمق الوجودي للإنسان، والقرآن الكريم رصد تلك المفاهيم المغلوطة وعمل سياقه على إيجاد حل مستدام يخلص البشرية من ويلاتها الفكرية المدمرة، وقد تنوعت تلك المفاهيم المغلوطة بين أفكار تؤثر على نسيج العلاقات الاجتماعية، أو أفكار متطرفة تسوِّق لفكرة التطرف القيادي على أسس التميز العرقي والديني، وبين تلك الأفهام المغلوطة التي قامت على أسس الاستفراد والإقصاء، وفيما يلي نستعرض طائفة من تلك المفاهيم الخاطئة وفلسفة السياق القرآني في التعامل معها:

المطلب الأول: أثر السياق القرآني في تصحيح المفاهيم العقدية:

خلق الله الإنسان وأخذ منه العهد والميثاق على أن يظل متشبثاً بزمام الوحدانية والبقاء في مسار التوحيد الذي لا يخالطه ريب الشرك والإلحاد، وأخبره بأن أي انحياز عن هذا المسار والانحراف عن سكة الانضباط العقدي سيقابل بحزم وسيكوى ذلك الانحراف بميسم اللوم والتأنيب لتعديل أوتار الخروج عن نصوص الواحدية؛ ولهذا ظل السياق القرآني يرصد الأفكار الهدامة التي تقدح في الذات الإلهية وتسيئ لمنظومة الإيمان العقدي، وما كان للإنسان أن يجرؤ على تبني تلك الأفكار الهدامة إلا لأنه أسلم عقله على طبق من خنوع لداء التطرف الفكري، وقاده هواه إلى مستنقع تلك الأفكار المسمومة التي تظهر الذات الإلهية بمظهر العجز وترسم له صورة مهترئة في أذهان المعبودين ليتسرب الشك والريب ويفقد الثقة بمولاه، والسياق القرآني وقف بحزم أمام تلك المفاهيم الخاطئة وعمل على تصحيح تلك الأفكار المغلوطة، ومن مظاهر التطرف العقدي:

(1) تصحيح مفهوم وصف الذات الإلهية بالبخل: قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ (المائدة: 64)، ها هم اليهود قد انسلخوا من عباءة الحياء، وسقطوا في مستنقع الإساءة اللفظية، ونعتوا الله سبحانه بصفات لا تليق بجنابه الطاهر ولا تجوز في ذاته الكاملة إرضاء لمفاهيم التطرف الفكري وانتصاراً لشهوة النفس.

ولأن هذا المفهوم العقدي المغلوط يرسخ لثقافة الإساءة، ولأن هذه الشريحة المارقة من جراب الاستقامة العقدية عمدت إلى إشاعة هذا الفكر الخاطئ عن ذات الإله السخية ورسم صورة نمطية سلبية عنه في أذهان المعبودين بغية تحقيق مقصد الانتقاص وإعلان التحول لتبني آلهة أسمى وأرقى في سلم النفع والكمال الوصفي؛ فقد استخدم السياق القرآني سلاح

الرد اللاذع لتكميم تلك الأفواه الناعقة أولاً وإعادتهم إلى مسار التوقير والاحترام، وثانياً لهدم قواعد ذلك الفكر وتصحيح مسار ذلك الاعتقاد المنحرف لقطع دابره وتحجيم إطار تبنيه الإنساني، وقد صبغت مفردات ذلك الرد بألوان التطهير والتنزيه لذاته سبحانه حيث قال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾، وحتى يكون الرسول -ﷺ- في يقظة دائمة تجاه تلك الأفكار المغلوطة فقد أخبره السياق بأن مدافع التشويه والاستهزاء لن تقف عند هذا الحد وإنما ستصعد وتيرة الاستفزاز وتتفنن في اختلاق المفاهيم المغلوطة، قائلاً: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ فكن منتبهاً لذلك الفكر الإنساني اللقيط وجهز ما يلزم من أدوات الحجة والبيان لتبديد سحائبه السوداء وتفنيد شبهاته الهدامة.

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم ثنيت اليد في﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾، وهي في ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ مفردة؟ قلت: ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفي البخل عنه، وذلك أن غاية ما يبذله السخي من ماله بنفسه أن يعطيه بيديه جميعا فبنى المجاز على ذلك"[38].

(2) تصحيح مفهوم وصف الذات الإلهية بالفقر وقلة الحيلة: قوله: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ (آل عمران: 181)، بنو إسرائيل تجرأوا على إيذاء الذات الإلهية واستخدموا مفردات الإساءة لذاته الطاهرة وخشية من أن يستفحل ذلك الفكر الدخيل على منظومة الفطرة وتوسيع قاعدة من يؤمن بهذا الفكر المنحرف؛ فقد مد السياق القرآني إلى التقاط تلك الظاهرة الفكرية المستهجنة بعدسة العلاج التربوي وشنع بأدوات الرد على ذلك الفكر الهدام، حتى لا تظل تلك الجرأة على ذاته دون عقاب، وقد تشمل ذلك التدخل السياقي بالآتي:

(أ) ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ ﴾ تدوين تلك السقطة الفكرية في كتاب الإدانة وتوثيق ذلك الحدث في قاموس السقوط الأخلاقي بغية تحريك الرأي العام الإنساني حتى لا يلدغ من حجر تلك الجرأة الهدامة.

(ب)﴿ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ إضعاف تلك الفكرة وتضييق مساحة ذلك الفكر المنحرف عن طريق إعلام البشرية بأن تلك الجماعة المتطرفة قد سفكت دم

الأنبياء دون وجه حق فهي لن تتورع عن سب الذات الإلهية والقدح في كمال سلطانه وربوبيته فلا تلتفتوا لتلك الأفكار الهدامة والساقطة.

(ج) ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ ومن أهم مرتكزات الفلسفة العلاجية لذلك الفكر أن السياق القرآني رتب عقوبة قاسية لكل من تسول له نفسه المساس بالأمن الكمالي للذات الإلهية والغلط في حق جنابه المقدس.

(د) ﴿ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ كما أرشد السياق بأن تلك النهاية المأساوية لتلك الجرأة هي من صناعة الإنسان وهو من رسم ملامح الألم والخلود الأبدي في نار الشقاء والتعاسة فينبغي للإنسان أن يحكم عقله قبل أن يدلي بدلوه في بئر الشتائم والانتقاص الهدام.

يقول السعدي: "يخبر تعالى، عن قول هؤلاء المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها، وأسمجها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه وأنه سيكتبه ويحفظه، مع أفعالهم الشنيعة، وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأنه يقال لهم –بدل قولهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ ﴾– ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة، وأن عذابهم ليس ظلما من الله لهم، فإنه ﴿ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ فإنه منزه عن ذلك، وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبائح، التي أوجبت استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب"[39].

(3) تصحيح مفهوم ادعاء الاصطفاء الإلهي من دون الناس: قوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ ﴾ (المائدة: 18)، ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ ﴾ (البقرة: 111) نزل القرآن الكريم ليقوم بإرساء قيم العدالة والمساواة وجاءت نصوصه لتؤكد بأن الناس سواسية في نظر العناية الإلهية كأسنان المشط، وأن سلم القرب لا يقوم على أسس المحاباة والتفضيل وإنما يعترف بمعيار واحد هو التقوى، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (الحجرات: 13)، وكل من يتتبع سياق القرآن يجد بأنه يدفع باتجاه إلغاء فكرة الاصطفاء القائم على أسس العرق والدين والطائفية.

فاليهود والنصارى تطرفت أفكارهم وتبنوا بعض المفاهيم الخاطئة ومن ذلك قولهم بأنهم أبناء الله ﴿ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ ﴾ وأن أبواب الجنة لا تفتح إلا لمن تبنى أفكارهم ودان بعقيدتهم ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ ﴾ فالسياق القرآني لم يسكت تجاه ذلك الفكر الهدام الذي يسهم في تشظي المجتمع وينمي روح الكراهية والانقسام، وإنما عمل على تصحيح ذلك المفهوم وفق فلسفة تقوم على الرد العلمي والمنهجي تمثلت بالآتي:

(أ) ﴿ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ ﴾ استخدام أسلوب التساؤل العلمي ورمى كرة الإثبات العلمي في ملعبهم ﴿ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ إن كنتم صادقين في ادعائكم ذلك فلماذا سيجلسكم على طاولة المساءلة الأخروية، ويجلد انحرافكم العقدي والأخلاقي بسياط التأديب، هنا كممت الأفواه وبهت الإنسان ولم يستطع أن يبرر تلك الأفكار وذلك الاصطفاء الهدام.

(ب) ﴿ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ ﴾ وحتى يعدل أوتار ذلك الغرور ويعيد تلك الشريحة إلى الحاضنة الإنسانية، أخبرهم بأنهم من جملة البشرية، وليس لهم الحق في استخدام مفردات الكبر وحصر المحبة ودخول الجنة على أجناسهم دون سائر الناس.

(ج) ﴿ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ ﴾ وفي سبيل سعيه لوأد ذلك المفهوم الهدام في تراب الخلاص أخبرهم بأن ثوب الرحمة يلبسه الله من يشاء من عباده دون النظر إلى شكله ولونه وعرقه وعقيدته، وأن ثوب العذاب يلبسه الله من انحرف عن مسار الانضباط العقدي وتاه في صحراء الضياع والعصيان.

وزعم اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، قل لهم –أيها الرسول–: فَلأيّ شيء يعذِّبكم بذنوبكم؟ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم، فالله لا يحب إلا من أطاعه، وقل لهم: بل أنتم خلقٌ مثلُ سائر بني آدم، إن أحسنتُم جوزيتم بإحسانكم خيرا، وإن أسَأْتُم جوزيتم بإساءتكم شرًّا، فالله يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، وهو مالك الملك، يُصَرِّفه كما يشاء، وإليه المرجع، فيحكم بين عباده، ويجازي كلا بما يستحق[40].

(4) تصحيح مفهوم ادعاء نسبة الولد للذات الإلهية: قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ﴾ (التوبة: 30)، بنو إسرائيل هم

صناع الفكر المنحرف وعلى أكتافهم قامت حضارة الإفك والبهتان، فهم لم يجرموا في حق مولاهم وإنما أجرموا في حق أنفسهم لارتباكهم ذلك المنكر الفاحش، وهذه المرة لم يتوقف الحال عند وصفهم الذات الإلهية بالبخل وقلة الحيلة وإنما صعدوا من وتيرة إيذائهم ورشقوا الذات المقدسة بأحجار الانتقاص والشتائم رغبة في الإساءة ولا شيء غيرها، فاليهود رأوا في شخصية عزيز الرجل المناسب ليكون سبطاً لله، وبينما النصارى رأوا في شخصية المسيح القدرة على أن يلعب دور الولد المخلص للذات الطاهرة، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

وفي التفسير الوسيط:" وقد أَفادت الآية، أَن كلاً من اليهود والنصارى كفروا بادعاء البُنُوَّة لله تعالى، فأَما اليهود فقد زعموا أَن عزيراً ابن الله، وأَما النصارى فقد زعموا أن المسيح ابن الله، وسبب قول اليهود مقالتهم، أَن بختنصر أَخذ جميع نسخ التوراة منهم وأَعدمها لمَّا غزاهم، ولم يوجد فيهم بعد حين من يحفظها، حتى ظهر عزير فأَملاها عليهم حفظاً كما زعموا، فتعجبوا من ذلك وقالوا: ما ذاك إلا أَنه ابن الله"[41].

ولأن هذا الاتهام الباطل يقدح في الذات الإلهية ويفقدها صفة السلطة والقدرة المطلقة؛ فقد أخذ السياق القرآني على عاتقه تفنيد هذه الفكرة المغلوطة وتصحيح مسار الأفهام، وقد قامت فلسفة التصحيح على الآتي:

(أ)قال تعالى: ﴿ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ (النساء: 171) صحح السياق القرآني تلك الفكرة المغلوطة ونفى عن الله صفة التبني، وأوضح بأن المسيح هو رسول من جملة الرسل الذين حملوا مشعل الهداية، وسلموا راية التبليغ، وكلفوا بأداء مهمة الوعظ وإيقاظ الناس من سبات الغفلة ومن سكرة الانحراف العقدي.

(ب)قال تعالى: ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾ (النساء: 172)، وحتى يدرأ الإله سبحانه ذلك الاتهام الزائف أوضح السياق بأن المسيح رقبته أدق من الشعرة تحت سيف السطوة الإلهية، وأن المسيح قد ارتدى ثوب العبودية، ومن يخرج عن سكة الإذعان والانقياد سوف يجلس على طاولة المحاسبة والمساءلة في أرض الميعاد الأكبر.

(ج)قال تعالى: ﴿ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ

ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمُّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ ﴾(المائدة: 17)، وحتى يلجم تلك الأفواه الناعقة ويلقمها حجر المراجعة الفكرية فقد أخبر السياق القرآني بأن إرادة الله غالبة وأن المسيح ذاته لا يملك القدرة على درء سحابة الهلاك، ولا أي شخص مهما كان نفوذه ومهما كانت قوته فسلطان الله هو الغالب والقاهر.

(د) قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ ﴾(المائدة: 72)، المسيح –عليه السلام– رفض ذلك التقديس الذي ليس له أي محل من الإعراب في جمل المصداقية، وأخبر بأنه عبدالله ورسوله ونزه الله عن تلك الإساءة وذلك الاتهام الزائف.

(هـ)﴿ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ (التوبة: 30)، وحتى يقطع السياق القرآني دابر ذلك الفكر الهدام والفهم المغلوط فقد أخبر بأن ذلك الاتهام هو مجرد ألفاظ جرت على لسان السقوط الفكري وليس له أي حضور في قنوات القناعة الذاتية، وهذه التهمة لا تعدو سوى محاكاة بائسة لقوم سقطوا في مستنقع الكفر وانحرفوا عن مسار الإيمان والفطرة، وأن الله بالمرصاد لتلك الأفكار يمزق نسيجها بمعول الحجة، ويقتل ولادتها بسيف المحاربة المهنية.

المطلب الثاني: أثر السياق القرآني في تصحيح المفاهيم الاجتماعية:

(1) تصحيح مفهوم الأحكام المسبقة: قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾ (البقرة: 30)، الحكم على الناس المسبق عن طريق السماع وتكوين صورة نمطية سلبية عن الشخص دون الجلوس معه على طاولة الأخذ والعطاء ليس وليد اللحظة وإنما مارسته الملائكة منذ بدء الخليقة مع آدم – عليه السلام– فبعد أن أخبرهم الإله سبحانه بأنه سوف يسلم آدم مشعل الاستخلاف ويسلمه شارة القيادة ويجعله على كرسي السلطة الإدارية للحياة الدنيا بغية عمارة الأرض وتحقيق النهضة الحضارية والتنمية المستدامة؛ بادرت الملائكة إلى نعت آدم بأوصاف لتقليل أسهم حضوره في

بورصة الانتقاء، وحتى لا يزاحمها على مقاعد الاصطفاء الإلهي قائلة: ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ وحتى يبرروا ذلك النقد غير المهني لشخصية لم تجمعهم به طاولة النقاش والحوار، ولم يكتشفوا بعد منظومة علمه ومعارفه وقعوا في محظور الفخر وإظهار الجانب المشرق في شخصياتهم قائلين: ﴿ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ ﴾.

تقول داليا: "ظهور الانحراف مرتبط بوجود الإنسان وأدلة ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ لكن الانحراف إما أن ينتج عن فكر مخالف أو إنكار للنصوص الشرعية، أو فهمها فهماً خاطئاً وتأويلها بما يتوافق مع الهوى والمذهب، أو قد يكون الانحراف نتيجة لإهمال العقل وعدم استخدامه استخداماً مهتدياً"[42].

ويقول ابن قيم الجوزية: "ولم تكن الملائكة تعلم فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه وكان خافياً عنهم من أمره فكان في الأمر بالسجود له تكريماً لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض وجبراً له وتأديباً للملائكة وإظهاراً لما كان مستخفياً في نفس إبليس وكان ذلك سبباً لتمييز الخبيث من الطيب... ثم إنه سبحانه لما علم آدم ما علمه ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه فأنبأهم به آدم وكان في طي ذلك جواباً لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض فإنه يفسد فيها ويسفك الدماء فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان في ظنهم"[43].

ولما كان هذا الفكر الهدام وهذا الخلق الذي يهتك نسيج الثقة ويؤسس لثقافة النقد غير المهني والحكم على الإنسان استناداً إلى مؤشرات التحامل بحثاً عن إرواء عطش الانتصار للذات ورفع أسهم الأنا بالتغذي على مفردات النقد الجارح؛ لهذا وقف السياق القرآني موقفاً حازماً تجاه ذلك المفهوم المغلوط وعمل على رسم مداميك التعامل معه لضمان عدم إشاعته في أروقة المجتمع والخلاص منه بصفة أبدية.

قال القرطبي:" فإن قيل: فإذا لم يكن أفضل منهم فما الحكمة في الأمر بالسجود له؟ قيل له: إن الملائكة لما استعظموا بتسبيحهم وتقديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليريهم استغناءه عنهم وعن عبادتهم. وقال بعضهم: عيروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص

الصنع به فأمروا بالسجود له تكريماً. ويحتمل أن يكون الله تعالى أمرهم بالسجود له معاقبة لهم على قولهم:" ﴿ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ لما قال لهم ﴿ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾"(44).

وقد احتوت فلسفة القرآن على استراتيجيات تربوية لتغيير الصورة المهترئة في أذهان الملائكة عن آدم تمثلت في الآتي:

(أ)قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ لأنه لا مجال لأنصاف الحلول في هذه القضية التي تهدد نسيج اللحمة الإنسانية فقد رفض السياق القرآني مجرد التعاطي مع الفكرة وتبادل أطراف الحديث حولها، وإنما استخدم أسلوب الكف ونسب الله حيثيات هذا الاستخلاف له سبحانه بغية إيقاف الملائكة في محطة المراجعة النقدية لذلك السلوك المستهجن وضمان عدم تكراره مرة أخرى.

(ب) قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ لم يكتف السياق القرآني باستخدام أسلوب الكف والمنع من الخوض في قضية لم تتحقق منها جوارح الملائكة ولم تبلغ بها قدراته التحليلية مرتبة اليقين؛ فقد أخضع ربنا آدم لجلسات من التأهيل المعرفي والتطوير الذاتي لقدراته وإمكاناته حتى يدحض فكرة التقزيم بأدلة علمية وبراهين لا تقبل القسمة إلا على مفردات التسليم، وحتى لا يدع مجالاً للشك في قدراته فقد بلغ بها مرحل الاستعصاء والتمكن المعرفي.

(ج) قال تعالى: ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ الإنسان لا يلجأ لمرحلة الشطط العلمي والمعرفي، وارتداء ثوب الأنا إلا إذا مسه طيف الكبر والاستعلاء ويرى نفسه الوحيد القادر على إدارة الموقف الإداري والقيادي بكفاءة واقتدار؛ لهذا حتى يظهر السياق عجز الملائكة ويجبرهم على مراجعة تلك الأفكار فقد أجلسهم على مقاعد الامتحان وقد عادوا في ميدان الابتلاء بخفي العجز وقلة الحيلة المعرفية قائلين: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

(د) قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل

لَكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ وحتى يثبت السياق القرآني أحقية آدم بذلك المنصب وعلو كعبه القيادي على الملائكة واستحقاقه في تسلم شارة الاستخلاف من قبل مولاه؛ فقد طالبه الله باستعراض قدراته العلمية وإظهار ملكة التذكر على مرأى ومسمع من الملائكة وقد نجحت تلك الاستراتيجية التربوية في نقل الملائكة نقلة نوعية في سلم النقد المهني القائم على معايير المعرفة والدراية وليس المستند على لغة العاطفة فأعلنوها صراحة واعترفوا بفضل آدم بقولهم: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

فيستفيد المربي من هذا الأسلوب ولا سيما الأب مع أبنائه, والمعلم مع طلابه, وذلك في طرح موضوع يشد انتباههم؛ لتتوق أنفسهم إلى استكشاف خباياه, ومعرفة مكنوناته, فتستهوي أنفسهم السؤال والنقاش؛ ليبدأ الحوار الذي تصاحبه آدابه في جوٍ يسوده الهدوء. ثم يبين لهم ذلك المربي ما أراده من هذا الموضوع, فيكون ذلك أدعى لاستيعابهم له, ورسوخه في أذهانهم, مما لو ألقاه لهم مباشرة[45].

(2) تصحيح مفهوم الاستحقاق القيادي:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 247).

انحرف بنو إسرائيل عن مسار المفهوم العقلاني والمنطقي لمن يوسد على هرم القيادة ووضعوا معايير للاختيار ولكنها جانبت المهنية وشرقت بعيداً عن فلك الاستحقاق المهاري بغية تفصيل مقاسات خاصة لمن يمسك بزمام القيادة الذي تتوافق شخصيته مع أهوائهم وتنسجم مع مآربهم وأطماعهم؛ وذلك عندما أخبرهم نبيهم بأن الله قد عين طالوت ملكاً عليهم وليدير معركة إثبات الوجود ويسترد ما سلب منهم بسيف القوة ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾، لم يسلموا لذلك التعيين وإنما وضعوا أسئلة الاستهجان الفكري، واعترضوا على مرسوم ذلك التكليف الإلهي قائلين:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ (البقرة: 247).

اعترضوا لأن مفهومهم للاستحقاق القيادي كان قاصراً فقد ظنوا بأن المال هو الذي يصنع القيادة ويفسح المجال للشخص لأن يعتلي هرم اتخاذ القرار، وثانياً لأن ذلك الشخص لم تتكون عقليته في بيئة الانتماء والتنشئة الاجتماعية الاستعلائية ولكن ذلك التطرف الفكري قد جانب الصواب، ولأن توسع قاعدة هذا الفكر الهدام سيرخي بظلاله على واقع الاختيار المهني لعناصر الإدارة في مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية؛ لهذا لم تمر هذه النقطة مرور الكرام وإنما وضعت أسفلها خطوط الرد الحمراء للتحذير من خطورة استفحال هذه الأفكار المتطرفة، ولتصحيح ذلك المفهوم ورسم مداميك الخروج من أزمة الشذوذ الفكري.

وقد قامت فلسفة السياق القرآني لتبديد سحائب هذا المفهوم الخاطئ على الآتي:

(أ)قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ اختار السياق القرآني أرقى عبارات التوصيف عند تسويق طالوت وتقديمه لدوائر اتخاذ القرار فالسياق لم يقل (اختار لكم طالوت ملكاً) وإنما عبر بمصطلح أسمى وأرقى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾؛ وذلك لقيادة توجسهم إلى محطة القناعة التي لا تقبل القسمة إلا على مفردات التسليم والخضوع والانقياد.

قال أبو زهرة: "أي أن الله سبحانه قد أخرج من صفوفكم –وهو العليم الحكيم الخبير بأحوالكم– شخصاً قد استوفى كل أسباب الرياسة وجعله ملكاً عليكم. وفي التعبير إشارة إلى أنه أمثلهم وأقواهم على تحمل أعباء الحكم؛ لأن "بعث" تتضمن معنى الإثارة والفحص ثم الإخراج"[46].

(ب)قال تعالى:﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ وحتى يجبرهم السياق القرآني على هز رأس التسليم وإفساح المجال لطالوت كي يمارس أدوار القيادة وإدارة موارد الدولة السيادية؛ فقد أخبرهم نبيهم (شمويل) بأن من اتخذ القرار ليس هو وإنما من ينظر إلى الغيب من خلف ستار الإحاطة فهو أعلم بذلك الاختيار وأفهم بأبعاده من الناحية المصالحية والمقاصدية، وحتى لا يبقى أي أثر للشك ولا تتسرب ريبة الاختيار

إلى قلوبهم فقد عبر عن ذلك بلفظ (الاصطفاء) ومعلوم ما فيه من دلالات إيجابية تشعر المرء بالرضا وتبني جسور الثقة.

(ج)قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ وحتى تكتمل منظومة التصحيح الفكري لذلك المفهوم القاصر فقد أخبرهم بأن المال وحده لا يصنع التحول القيادي؛ إذ لابد لمن يعتلي هرم القيادة أن يتمتع بمنظومة علمية تسمح لهم بوضع خطط البناء وتساعده في اتخاذ القرارات السليمة بعيداً عن لغة العاطفة، كما أن القائد لابد أن يتمتع بجاهزية بدنية تسمح لهم بتحمل أعباء الحكم وإدارة ملفات الدولة بحكمة واقتدار، ثم ختم منظومة التصحيح الفكري بإخبارهم بأن ذلك الاختيار خارج عن إرادتهم وليست لهم أي سلطة في تغيير مسار الاختيار الإلهي.

(د) قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وحتى يثبت لهم نبيهم صوابية اتخاذ ذلك الشخص وعلو كعبه المعرفي والعلمي حتى يوسد عليهم ملكاً فقد أخبرهم بأنه سيأخذ على عاتقه استعادة الألواح المقدسة التي سلبت منكم حتى تكتمل منظومة التسليم، ويحملوا طالوت على أكتاف الرضا وهذا ما حصل بعد أن ألقت الملائكة التابوت أمام عدسات ذهولهم، وبهذا استطاع السياق القرآني أن يصحح ذلك المفهوم الخاطئ ويثبت دعائم الاختيار المهني القائم على احترام الكفايات القيادية.

قال القشيري:" نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملكاً لأنه كان فقيراً لا مال له، فبيّن لهم أن الفضيلة باختيار الحق، وأنه وإن عدم المال فقد زاده الله علماً ففضلكم بعلمه وجسمه، وقيل أراد أنه محمود خصال النفس ولم يرد عظيم البنية فإن في المثل: (فلان اسم بلا جسم) أي ذكر بلا معنى. إن الله سبحانه إذا أظهر نوراً أمدّه بتأييد من قبله، فلما ملّك طالوت عليهم أزال الإشكال عن صفته بما أظهر من آياته الدالة على صدق قول نبيّهم في اختياره، فردّ عليهم التابوت الذي فيه السكينة، فاتضحت لهم آية ملكه، وأن نبيهم عليه السّلام صدقهم فيما أخبرهم"[47].

كيف لمؤسسات صناعة القرار في مجتمعات التخلف العربي الاستفادة من هذا المفهوم عند اختيار من يجلس على كرسي الإدارة، فينبغي لمن يفتش في سير المرشحين

أن يكون مهنياً وانتقائياً عند اختيار الأشخاص فلابد من وضع معايير مهنية صارمة حتى تفرز أكفأ العناصر وتقود من يستحق إلى هرم السلطة والنفوذ على أن يكون العلم ومنظومة الثقافة في سلم أولويات الاختيار القيادي، هذا الوضع الطبيعي ولكن للأسف واقع المسلمين يغرد خارج سرب الاختيار المهني ولقد وسد بعض الأشخاص على كرسي الإدارة ليس لكفايتهم وإنما لأنهم يتمتعون بنفوذ سلطوي في دوائر صناعة القرار، وكذا استناد الاختيار على الخلفية السياسية والانتماء العرقي والقبلي ولا ينظر إلى خلفية الإنسان المعرفية والثقافية؛ ولهذا ما زالت المجتمعات العربية في مؤخرة ركب الحضارة وتعيش مؤسساتهم على هامش رصيف الإنتاجية.

(3) تصحيح مفهوم التقييم بناء على المظهر والمنطق:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ (البقرة: 204)، وقال أيضاً: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ (المنافقون: 4).

ضرب السياق القرآني على وتر خلق اجتماعي خطير بغية تصحيحه وإزالة الغموض حوله حتى لا يتفشى في أروقة التقييم العاطفي، وذلك أن الكثير من الناس يقع فريسة للتقييم السطحي والاغترار بالمظهر الجميل الأخاذ والتأثر العاطفي بمنطق الإنسان الفصيح والساحر، ومن أجل إثارة هذه القضية ولفت الانتباه إلى أبعادها السلوكية الخطيرة فقد استخدم لفظ (تعجبك) وهي إشارة إلى كمال الاستسلام والانخداع السلبي بتلك المؤشرات الهلامية والتي لا تنبئ عن حقيقة ما يكتنزه الإنسان في داخله من شرور ونفس تتوق لمعاقرة كل سقوط ورذيلة.

قال ابن جرير الطبري: "قال: هذا عبد كان حسن القول سيئ العمل، يأتي رسول الله -ﷺ- فيحسن له القول، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها"[48].

وقال طنطاوي: "ومن الناس فريق يروقك منطقهم، ويعجبك بيانهم، ويحسن عندك مقالهم. فأنت معجب بكلامهم الحلو الظاهر، المر الباطن، وأنت في هذه الدنيا لأنك تأخذ الناس بظواهرهم، أما في الآخرة فلن يعجبك أمرهم لأنهم ستنكشف حقائقهم أمام الله الذي لا تخفى عليه خافية، وسيعاقبهم عقابا أليما لإظهارهم القول الجميل وإخفائهم الفعل القبيح"[49].

ولتصحيح مسار هذا المفهوم الخاطئ فقد قامت فلسفة السياق القرآني على الآتي:

(أ)حتى يستيقظ المسلم من سبات الغفلة ويتنبه للخطر السلوكي الذي يتهدده فقد راح السياق القرآني يذكر صفات هذا الصنف من الناس المارق من جراب الإنسانية والمصداقية حتى يكون المسلم على بينة منهم، ومنها:

- قال تعالى: ﴿ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾ هذه الشريحة من الناس تغلف معدنها الإنساني الرديء بغلاف تجميلي من المظهر اللائق والمنطق الساحر لكن سرعان ما يسقط ذلك الرداء ويظهر معدن الإنساني المهترئ، فإذا جلست معه على طاولة النقاش أبدع في استخدام مفردات الفجور وتجاوز الحد في الخصام العقيم.
- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ﴾ ومن أهم خصائصه إذا كان عندك وكأن على رأسه طير المثالية يجمل منطقه ويحسن معشره، فإذا غابت أنظار الرقابة وتوارت عدسات الملاحظة زرع فسائل القطيعة في تراب الإفساد، وقطع أواصر اللحمة بمفردات الغيبة والنميمة، وهتك ستار العصمة بعبارات الإيذاء بغية الارتقاء في سلم الحظوة والقرب خطوة من محطة الرضا الإلهي.
- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ إذا وجهت إليه مفردات النقد البناء رفع رأس الكبر، وأخذته عزة الاستعلاء بإثم الخيلاء ورمى بعبارات التوجيه الوعظي في سلة المهملات دون أن ينظر إليها بطرف الاهتمام وعدسة الإصلاح والتقويم.
- قال تعالى: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ قلوبهم على كف عفريت الشك والريبة لا يشعرون بطعم الاستقرار فهم في توجس دائم إذا ارتفعت أصوات الحق ارتعدت فرائصهم واهتز كيانهم خشية أن تتكشف ألاعيبهم ويزاح ستار النفاق عن قلوبهم وصدورهم.
- قال تعالى: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ ولأجل أن تنجح فلسفة السياق في خلق التحول وإيقاظ الوعي الإنساني تجاه خطورة هذا المفهوم الهدام على منظومة الانتماء القيمي، فقد أوضح بالرغم من ارتدائهم لأثواب الخداع اللفظي إلا أنهم هم العدو فاحذر أيها المسلم أن تسقط في حبائل تزيينهم وأشواك خداعهم.

- قال تعالى: ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ ﴿ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ وحتى يضع السياق المسلم في صورة هذا المفهوم الهدام فقد تكفل الله بقتالهم وكشف ألاعيبهم؛ وذلك لصعوبة تمييز تلك الفئة لأنها تتدثر بجلباب الصلاح وتختبئ خلف عباءة التزيين الخطابي والوعظي الزائف، ولقد شدد الله العقوبة على هذا الفكر؛ لأنه ينخر أساس المجتمع ويحفر خندق الانهيار المؤسسي بممارساته القذرة.

قال المراغي: "إن هذا الفريق يركن في خداعه للناس إلى أمور ثلاثة[50]:

(1) حسن القول بحيث يعجب السامع ويملك لبه، بحيث لا يتهمه في صدقه.

(2) إشهاد الله تعالى على صدقه وحسن قصده.

(3) قوة العارضة في الجدل عند محاجة المنكر أو المعارض".

قال ابن كثير: "كانوا أشكالا حسنة وذوي فصاحة وألسنة، إذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبن؛ ولهذا قال: ﴿ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي: كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف، يعتقدون، لجبنهم، أنه نازل بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ (الأحزاب: 19)، فهم جهامات وصور بلا معاني. ولهذا قال: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ أي: كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال"[51].

الخاتمة

بعد أن وصل بنا المقام إلى محطة الختام، وتمكنا من تسليط الضوء على أهم المفاهيم الفكرية والخاطئة ووضع المعالجات التربوية باعتبار سلامة العقل الإنساني وحمايته هو الركيزة الأساسية في مشروع التنمية الإنسانية المستدامة، وإليك بعض النتائج والتوصيات التي توقفنا في محطتها التأملية، فنقول وبالله التوفيق:

أولا: النتائج:

- تباين أهل اللغة في وضع حد للسياق ودلالاته الإيحائية وبالرغم من هذا التباين إلا أن مفرداتهم صبت في قالب التوافق الفكري؛ إذ أجمعت أحرفهم على أن السياق يتمحور حول التتابع والاتصال، ولكننا أخذنا منها دلالة أسلوب الكلام وسياقه الذي ورد فيه لأن هذا المفهوم يخدم هدف البحث ويتلاءم مع سياقه المعرفي.
- تباين العلماء في رسم حدود السياق من الناحية الاصطلاحية فمنهم من ذهب إلى أن السياق يدور حول المقال (السياق اللغوي)، بينما ذهب فريق آخر إلى أن السياق يجمع بين المقال والحال؛ إذ لا يمكن الإحاطة بدلالة النص القرآني دون معرفة الأحوال والقرائن التي نزل بها، وبالرغم من أن فكري قد جنح لتأييد المفهوم الثاني؛ إلا أنني استخدمت المفهوم الأول في توصيف السياق إذ يتفق نوعاً ووصفاً مع مقاصد هذا البحث.
- الخلاف الدائر في تحديد أبعاد السياق كونه لفظاً مجرداً من القيود قد أرخى بظلاله على مفهوم السياق القرآني وقد تباينت آراء الكتاب ولم يجمعوا على كلمة سواء حول مفهومه، ولقد أدلى الباحث بدلوه في بئر الجدال التوصيفي وعرف السياق القرآني إجرائياً بأنه: هو جملة النصوص القرآنية التي سيقت عرضاً من قبل المشرع سبحانه وتعالى بغية إرساء القوانين المنظمة لحياة الإنسان أو لتصحيح مسار القضايا التي انحرفت عن قبلة التفسير العقلاني في مشهد سياقي يتسم بالوحدة الموضوعية والترابط المهني.
- لعب السياق القرآني دوراً محورياً في بناء الإنسان واستنهاض قدراته وتوسيع مداركه العقلية إيماناً منه بأن الإنسان هو حجر الزاوية في بناء المجتمعات وعلى أكتافه تتحقق التنمية والنهضة المستدامة، ولقد تعددت مهام السياق التربوية ابتداء بإكساب المسلم مهارة توصيف القضايا توصيفاً علمياً، ومروراً بلفت انتباهه إلى ضرورة تفعيل أدوات

التعلم وتوظيفها في الزمان والمكان المناسبين، وانتهاء بمده بما يلزم من أدوات القراءة الموضوعية للنص القرآني حتى لا يشرق المسلم ويغرب في فلك الانحراف الفكري.

- العقل الإنساني هو رمانة ميزان الاستقرار وعلى أكتافه التفكيرية تقوم الحضارات وتتحقق التنمية المستدامة وبما أن العقل عرضة لمشاريع الاستغلال والابتزاز السلبي فقد أحاطه السياق القرآني بسياج منيع، وقد تنوعت ألوان تلك الحماية منها: حمايته بتشريع الأحكام وعدم مخامرة المواد المسكرة، وأيضاً عدم الجلوس في مجالس اللغو وتسليم العقل لمفردات التشكيل السلبي، وحمايته من التنشئة الاجتماعية السلبية، وحمايته بالتوجيهات التربوية العامة التي تسهم في منحه الحصانة الفكرية اللازمة.
- ولأن داء التطرف يبدأ بانحراف العقل عن التفسير العقلاني للمواقف فقد تنوعت فلسفة القرآن التربوية في تصحيح المفاهيم الفكرية الخاطئة، ومن ذلك: تصحيح المفاهيم العقدية المتعلقة بالذات الإلهية كوصفه البخل والفقر ونسب الولد له زوراً وبهتاناً، وتصحيح مفهوم الأحكام المسبقة حتى لا يقع المسلم في مربع الظلم النقدي، وتصحيح مفهوم الاستحقاق القيادي وإيضاح فلسفة القرآن العلاجية، وتصحيح مفهوم الاغترار بالظاهر وعدم قراءة الخلفية العلمية والأخلاقية للإنسان.

ثانيا: التوصيات:

- نوصي صناع القرار التربوي ومن يرسم مداميك التخطيط التعليمي المستدام أن يأخذ بعين الاعتبار أهمية السياق القرآني في بناء شخصية الإنسان وإسهامه في ضبط إيقاع الفكر المتطرف ليعود إلى حضيرة القراءة العقلانية، وأن يعكس ذلك الاهتمام على شكل برامج تدريبية ومؤلفات فكرية تدمج في خارطة البناء المعرفي لعقلية الطالب.
- نوصي الهيئات العليا لتأليف المناهج بالجلوس على طاولة النقد ومراجعة الإطار المرجعي والقيام بالتحديث العصري لمناهج التنشئة الفكرية، وتضمينه بعض المفاهيم التي تعلي من شأن السياق القرآني وتحث الطالب على الغوص في أعماقه واستخدام أداوت التدبر والتحليل لبناء قدراته وصقل مهاراته التفكيرية، وتصحيح مفاهيمه التي غرد بها خارج سرب القراءة الموضوعية.
- على مراكز البحث العلمي ومؤسسات التثقيف الفكري توجيه بوصلة الكتاب والباحثين نحو قبلة السياق القرآني، والعمل على تدبر النصوص وتحليلها ومن ثم توظيف أقلام التأليف لإظهار البعد الجمالي للسياق ولفت انتباه من ينشط في سلك التربية والتقويم

إلى بعض المفاهيم الفكرية التي تسهل له مأمورية بناء الفرد وتقديمه للمجتمع على طبق المثالية والتكامل.

- ينبغي على صناع القرار ومن يجلس على كرسي الأمر والنهي أن يشكل لجنة لتقصي أثر الأفكار المتطرفة والهدامة ورصدها بمجهر القراءة النقدية وخاصة منها التي تهدد الوجود الإنساني، وتهدد السلم والأمن المجتمعي، ومن ثم القيام بجولة تأملية في النصوص القرآنية والبحث عن حلول مستدامة لها في أعظم كتاب فكري قرأ الإنسان وغاص في أعماقه وأحاط بمكنونه وجوهره.
- نوصي الجمعيات ومنظمات المجتمع المدني العاملة في مجال بناء الإنسان وإعادة تأهيليه إلى تكثيف جهود التصحيح المفاهيمي لفكر الإنسان باعتباره رمانة التحول الأولى، وإلى تبني بعض المشاريع الفكرية النوعية التي تسهم في تصحيح المفاهيم الخاطئة عن الذات أولاً، ومن ثم المفاهيم المتعلقة بالمجتمع التي تعيق مسار النهوض وتؤخر عجلة الانطلاق النهضوي المستدام.

الهوامش

1- نصر، (د.ت). السياق القرآني وأثره في التفسير، ص(151) جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، مصر.

2- علي،(د.ت)، أثر الخطاب القرآني في العملية التربوية، ص(167)، (د.ن)، (د.م).

3- داود،(2018)، الانحراف الفكري ووسائل الوقاية والعلاج في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية، ص(810)، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، الإسكندرية.

4- فارس،(1979)، مقاييس اللغة، ج3، ص117، دار الفكر، بيروت.

5- الزمخشري،(1998)، أساس البلاغة، ج1،ص484، دار الكتب العلمية، بيروت.

6- ابن منظور،(1414)، لسان العرب،ج10،ص166، دار صادر، بيروت.

7- خضير،(2014)، دلالة السياق في النص القرآني، ص24، الأكاديمية العربية، الدنمارك.

8- الطبرسي،(2006)، مجمع البيان في تفسير القرآن،ج 6،ص345، دار المرتضى، بيروت.

9- ابن دقيق العيد،(د.ت)، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ج2،ص21، مطبعة السنة المحمدية، (د.م).

10- نصر، السياق القرآني وأثره في التفسير، ص122، مرجع سابق.

11- العامري،(2010)، السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، ص(40)، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، جامعة البصرة.

12- نصر، السياق القرآني وأثره في التفسير، ص(123)، مرجع سابق.

13- المطيري،(2008)، السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، ص(65)، جامعة أم القرى، مكة.

14- الراسخ،(د.ت)، السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، ص(13)، كلية أصول الدين، طنطا.

15- محمود،(2005)، السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي، ص(14)، جامعة اليرموك، الأردن.

16- السياق القرآني وأثره في التفسير، ص(139)، مرجع سابق.

17- السياق القرآني و أثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، ص(71)، مرجع سابق.

18- أخرجه البخاري في صحيحه،(1422)، كتاب: بدء الخلق، باب: قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾، ح رقم (3360)، ج4،ص141، دار طوق النجاة، (د.م).

19- السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي، ص22، مرجع سابق.

20- السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير التحرير والتنوير، ص150، مرجع سابق.

21- الزركشي،(1957)، البرهان في علوم القرآن، 2ج،ص320، دار إحياء الكتاب العربي، بيروت.

22- ابن تيمية،(1995)، مجموع الفتاوى، ج15،ص94، مجمع الملك فهد، السعودية.

23- عبداللي، طارشاني، (2020)، مصطلح العقل في القرآن الكريم ووسائل الحفاظ عليه: دراسة قرآنية مقاصدية، ص(85).

24- النووي،(1392)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج،ج 2،ص68، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
25- الغزالي، (1993)، المستصفى، ص(174)، دار الكتب العلمية، (د.م).
26- أبو زهرة، (د.ت)، زهرة التفاسير، ج4،ص1911، دار الفكر العربي، (د.م).
27- الناصري، (1985)، التيسير في أحاديث التفسير، 1ج،ص101، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
28- الانحراف الفكري ووسائل الوقاية والعلاج في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية، ص829، مرجع سابق.
29- لمزيد اطلاع راجع بحث الانحراف الفكري ووسائل الوقاية والعلاج في ضوء القرآن الكريم ص(862-882).
30- الشنقيطي،(1995)،أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج7،ص378، دار الفكر، بيروت.
31- أبو حيان،(1420)، البحر المحيط في التفسير، ج 9،ص507، دار الفكر، بيروت.
32- الشاربي،(1412)، في ظلال القرآن، ج 4،ص1931، دار الشروق، بيروت.
33- الانحراف الفكري ووسائل الوقاية والعلاج في ضوء القرآن الكريم، ص867، مرجع سابق .
34- المحضار،(د.ت)، الأمن الفكري في الكتاب والسنة ومدلولاته التربوية، ص20، (د.ن)، (د.م).
35- ابن كثير،(1999)، تفسير القرآن العظيم، ج7،ص237، دار طيبة، (د.م).
36- مناهج جامعة المدينة العالمية،(د.ت)، أصول الدعوة وطرقها 1، ص108، (د.ن)،(د.م).
37- الانحرافات الفكرية: سياقها وآثارها ومواجهتها، ص6، مرجع سابق.
38- الزمخشري،(1407)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج1،ص656، دار الكتاب العربي، بيروت.
39- السعدي،(0002)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص(159)، مؤسسة الرسالة، (د.م).
40- نخبة من أساتذة التفسير،(2009)، التفسير الميسر، ص(111)، مجمع الملك فهد، السعودية.
41- مجموعة من العلماء،(1993)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم،ج3،ص1689، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، (د.م).
42- الانحراف الفكري ووسائل الوقاية والعلاج في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية ص827، مرجع سابق.
43- ابن قيم،(د.ت)، بدائع الفوائد، ج 4،ص139، دار الكتاب العربي، بيروت.
44- القرطبي،(1964)، الجامع لأحكام القرآن، ج1،ص292، دار الكتب المصرية، القاهرة.
45- الجابري،(1434)، أسلوب الحوار من خلال سيرة مصعب بن عمير - ﷺ- وتطبيقاته التربوية، ص(42)، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
46- زهرة التفاسير،ج2،ص889، مرجع سابق.
47- القشيري،(د.ت)، لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري، ج1،ص192، الهيئة العامة للكتاب، مصر.
48- الطبري،(2000)، جامع البيان في تأويل القرآن،ج4،ص233، مؤسسة الرسالة، (د.م).
49- طنطاوي،(1997)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم،ج1،ص440، دار نهضة مصر، القاهرة.
50- تفسير المراغي، ص110، مرجع سابق.
51- تفسير القرآن العظيم، ج8،ص126، مرجع سابق.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، (1995). مجموع الفتاوى، طبعة دار الوفاء.
- ابن فارس، أحمد، (1979). مقاييس اللغة، دار الفكر.
- ابن قيم، محمد بن أبي بكر، (د.ت). بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، (1999). تفسير القرآن العظيم، دار طيبة للنشر والتوزيع.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، (1441). لسان العرب، دار صادر – بيروت.
- أبو حيان، محمد بن يوسف، (1420). البحر المحيط في التفسير، دار الفكر– بيروت.
- أبو زهرة، محمد بن أحمد، (د.ت). زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، (1422). الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله – ﷺ– وسننه وأيامه = صحيح البخاري، دار طوق النجاة.
- الجابري، عدنان بن سليمان، (1434). أسلوب الحوار من خلال سيرة مصعب بن عمير – ﷺ– وتطبيقاته التربوية، رسالة ماجستير، قسم التربية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
- خضير، علي حميد، (2014). دلالة السياق في النص القرآني، رسالة ماجستير، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والتربية، الأكاديمية العربية، الدنمارك.
- داود، داليا محمد، (2018). الانحراف الفكري ووسائل الوقاية والعلاج في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعية، حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد 4، العدد 32، ص804–906.
- الراسخ، محمد عبدالوهاب، (د.ت). السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية أصول الدين، جامعة الأزهر الشريف، مصر، طنطا.
- الزركشي، محمد بن عبدالله، (1957). البرهان في علوم القرآن، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- الزمخشري، محمود بن عمرو، (1407). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي– بيروت.
- الزمخشري، محمود بن عمرو، (1998). أساس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.

- السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، (2000). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة.
- الشاربي، سيد قطب، (1412). في ظلال القرآن، دار الشروق- بيروت- القاهرة.
- الشنقيطي، محمد الأمين، (1995). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت- لبنان.
- الطبرسي، أمين الإسلام، (2006). مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المرتضى، لبنان، بيروت.
- الطبري، محمد بن جرير، (2000). جامع البيان في تأويل آي القرآن، مؤسسة الرسالة.
- طنطاوي، محمد سيد، (1997). التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة- القاهرة.
- العامري، خليل خلف، (2010). السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد 9، العدد 2، ص37-63.
- عبداللي، بك زكوب، محمد ياسر، (2020). مصطلح العقل في القرآن الكريم ووسائل الحفاظ عليه: دراسة قرآنية مقاصدية، مجلة التراث، المجلد 5، العدد 2، ص85-102.
- العيد، ابن دقيق، (د.ت). إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، مطبعة السنة المحمدية.
- الغزالي، أبو حامد، (1393). المستصفى، دار الكتب العلمية.
- القرطبي، محمد بن أحمد، (1964). الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب المصرية- القاهرة.
- القشيري، عبدالكريم بن هوازن، (د.ت). لطائف الإشارات المعروف بتفسير القشيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب- مصر.
- مجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، (1993). التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.
- المحضار، رجاء بنت سيد علي، (د.ت). الأمن الفكري في الكتاب والسنة ومدلولاته التربوية، جامعة أم القرى، كلية التربية، مكة المكرمة.
- محمود، المثنى عبدالفتاح، (2005). السياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي، رسالة دكتوراه، قسم التفسير وعلوم القرآن، جامعة اليرموك، الأردن.
- المراغي، أحمد بن مصطفى، (1946). تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر.

-المطيري، عبدالرحمن عبدالله، (2008). السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، قسم الكتاب والسنة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، السعودية.

-مناهج جامعة المدينة العالمية، (د.ت). أصول الدعوة وطرقها1، جامعة المدينة العالمية.

-الناصري، محمد المكي، (1985). التيسير في أحاديث التفسير، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان.

-نخبة من أساتذة التفسير، (2009). التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف– السعودية.

-نصر، أحمد ماهر، (د.ت). السياق القرآني وأثره في التفسير، جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، مصر، السادات.

-النووي، يحيى بن شرف، (1392). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي– بيروت.